المبحث الثاني

الاطار النظري للدولة

ان البحث في اصل الدولة وطبيعتها كان من الموضوعات الأساسية التي شغلت منذ القدم المفكرين السياسيين الذي اعتمدوا في تفسيراتهم لنشأة الدولة على افتراضات نظرية وتأملات فلسفية. وبالرغم من ان المعرفة الانسانية الحديثة قد كشفت عيوب وشوائب الكثير من هذه النظريات التأملية القديمة، الا ان بعضها لم تزل تستحوذ على اهتمامات المفكرين. ان هناك خمس نظريات اساسية تبحث في اصل الدولة:-

١ ـ النظرية الدينية
٢ ـ النظرية الطبيعية
٣ ـ نظرية العقد الاجتماعي
٤ ـ ونظرية القوة
٥ ـ والنظرية الماركسية

وسوف نبحث في هذه النظريات باختصار، بالاضافة الى النظرة «الانتروبولوجية» التي تضع تطور الدولة في اطار واقعي مقبول.

١ ـ النظرية الدينية : The Divine theory

تعيد هذه النظرية القديمة اصل الدولة واصل السلطة الى اسس دينية الهية. فالدولة وجدت تحقيقاً لارادة الخالق الذي أوجدها واختار الملوك والاباطرة ليتولوا زمام الامور في الدولة تنفيذاً للارادة الالهية. لهذا فان سلطة الحكام اعتبرت مقدسة كما أن طاعتهم المطلقة كانت واجباً دينياً. وان هذا التصور الديني للسلطة قد وجد بدرجات متفاوته في الامبراطوريات الشرقية القديمة، ودولة

الفراعنة في مصر، والدولة اليهودية، ودولة الكنيسة في العصور الوسطى. كما ان نظرية «الحق الالهي للملوك» قد اعتمدت على تفسير ديني لسلطة الملوك التي قيل انها اسندت اليهم من الله لتحقيق ارادته في الارض[1].

٢ ـ النظرية الطبيعية أو (نظرية التطور الطبيعي):

The Natural theory

ينظر للدولة بحسب هذه النظرية الاغريقية على انها تطور طبيعي حتمي لحياة الانسان الذي اعتبره ارسطو «كائن سياسي متحضر» دفعته طبيعته السياسية الى الحياة الجماعية المنظمة. فتطور حياة الانسان من الأسرة الى القبيلة فالقرية ومن ثم المدينة هو تسلسل طبيعي ينسجم مع التطور الانساني الذي يهدف الى تحقيق «الحياة السعيدة». ان الانسان لا يستطيع تحقيق الهدف الاسمى من وجوده واكتشاف المعنى الحقيقي لانسانيته الا في ظل الدولة. فالانسان الذي اوصله نموه الطبيعي الى تكوين الدولة لن يستطيع بعد ذلك ان يعيش خارج نطاقها نظراً لارتباط انسانيته بها. ومن يعيش خارج نطاق الدولة فهو اما ان يكون «فوق مستوى البشر أو حيوان وحشي» ولكنه ليس انساناً ولا يتحلى بالخصائص الانسانية.

واذا كانت الاسرة تعمل على تلبية الحاجات البدائية في حياة الانسان فان الدولة تعمل على تحقيق نموه الاسمى كاشفة عن فضائل الطبيعة البشرية. ولم يكن لفنون الحضارة الانسانية ان تنمو لو اقتصر التطور الانساني على الاسرة. ففي ظل الدولة يبلور الإنسان نموه الانساني الذي يميزه عن تجمع الحيوانات الادنى و ينمي الفضائل التي يختص بها وحده. أي ان الطبيعة البشرية تتكشف عن أرقى خصائصها في ظل الدولة.

و يتضح من هذه النظرية ان الفلسفة الاغريقية لم تفصل بين الانسان

1- Edwins Coulter, **Principles of Politice and government** (Boston: Allyn and Bacon, Inc; 1981) p.20.

والدولة، فاصل الانسان واصل الدولة واحد والتطور الطبيعي لحياة الانسان قد استوجب تنظيم المجتمع سياسياً وبذلك ظهرت الدولة[2].

٣ ـ نظرية العقد الاجتماعي: The Social Contract theory

بعكس النظرية الدينية التي تعيد منشأ الدولة الى الرغبة والارادة الالهية، والنظرية الطبيعية ذات الصفة التطورية التي ترى نشأة الدولة كنتيجة حتمية لتطور حياة الانسان، فان نظرية العقد الاجتماعي ـ التي بلورها مفكروا القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر ومن أشهر من كتب عنها توماس هوبز Thomas Hobbes وجان لوك John Locke وجان جاك روسو Jean J. Rousseau ـ ترى ان الدولة هي من صنع الانسان وقد نشأت نتيجة لارادة الافراد التعاقدية الرضائية. حيث اتفق الافراد على انهاء حالة الطبيعة اما لانها شريرة (هوبز)، أو لكونها غير عملية بالرغم من مثاليتها (لوك) أو استجابة لظروف قاهرة (روسو)، والعيش معاً في ظل المجتمع المنظم سياسياً الذي يخضع افراده لسلطة عليا.

والعقد بالنسبة لهوبز قد انشأ المجتمع المدني والدولة معاً وهذا امر يصعب تخيله من الناحية العملية. اما العقد بالنسبة للوك فيقوم بتحويل المجتمع المدني الى دولة بواسطة انشاء السلطة السياسية المنظمة لحياة الافراد.

لقد وجهت لهذه النظرية عدة انتقادات واصبحت اليوم مرفوضة على اساس انها وهمية وغير حقيقية. ولكن من الجدير بالذكر أن الانتقادات التي وجهت اليها تتعلق بالصفة التعاقدية وليس بالصفة الرضائية المحددة لنشوء الدولة. فمعظم المفكرين حالياً يوافقون على نشأة الدولة الاختيارية بارادة الافراد ولكنهم يعترضون على فكرة العقد الذي تحدث عنه فلاسفة القرن السابع عشر. وذلك لاننا اذا سلمنا ان الدولة هي من صنع الانسان فهي اما ان تكون اختيارية اتفاقية أو مفروضة بالقوة. وباستثناء اصحاب نظرية القوة التالي شرحها، فان

2- Carlton C. Rodee, et. al; **Introduction to Political Science** Seoond Edition. (New York; McGraw Hill Book Company, 1967), p.29.

بقية المفكرين يعتقدون ان الدولة قامت بالاتفاق الاختياري بين الافراد دون أن يأخذ هذا الاتفاق شكل التعاقد[٣].

٤ ـ نظرة القوة : The Force theory

ويرى اصحاب هذه النظرية ان الدولة قد تكونت بواسطة القهر والقوة وسيطرة القوي على الضعيف ويستشهدون بسيطرة القبائل القوية على القبائل الضعيفة في الماضي كدليل موضح لعنصر القوة في نشأة الدولة. والدولة الزمنية في القرون الوسطى كانت بنظر الفلاسفة المسيحيين شريرة لانها بنيت على القوة والاكراه، واعتقدوا ان اخضاعها للسلطة الدينية سيخفف من عنصر الشر فيها (الدولة الزمنية بالنسبة اليهم قد تجسدت في الامبراطورية الرومانية).

والقوة بالنسبة لميكافيللي وهيجل ونتشه هي خاصية طبيعية من خصائص الدولة وفضيلة يجب التمسك بها والانطلاق من خلالها.

وبالمقابل يرى الكثير من المفكرين ان القوة وحدها لا تستطيع ان تبرر الاصل التاريخي للدولة «فالقوة بدون الحق يمكن ان تكون في احسن الاحوال مؤقتة، ولكن القوة مع الحق اساس دائم للدولة»[٤].

٥ ـ النظرية الماركسية : The Marxist theory

يميز ماركس بين المجتمع المدني والدولة، فالدولة بما فيها من مؤسسات وانظمة وقوانين هي وسيلة الطبقة الحاكمة التي أوجدتهالتستخدمها في فرض سيطرتها على بقية افراد المجتمع. وتطور مظاهر الدولة بالنسبة لماركس ما هو في حقيقته الا تغييراً للاساليب التي تستخدمها الطبقة الحاكمة لتثبيت وجودها،

---

٣ ـ اندريه هوريو، **القانون الدستوري والمؤسسات السياسية**، الجزء الأول، ترجمة علي مقلد، شفيق حداد، وعبد الحسن سعد (بيروت: الاهلية للنشر والتوزيع، ١٩٧٧ م)، ص ١٢٧ ـ ١٢٨.

٤ ـ د. محمد عبد المعز نصر، المصدر السابق، ص ١٠٤.

See also Rodee, **Opcit**, p. 28-29.

والتي تحدث استجابة لتغير الظروف الاقتصادية وعلاقات الانتاج. ومن هذا المنطلق يرى ماركس ان الدولة القومية الرأسمالية هي وسيلة الطبقة البرجوازية التي تستخدمها لتدعيم اسس النظام الرأسمالي الذي تسيطر عليه. أي ان مؤسسات وقوانين الدولة الرأسمالية هي ادوات سلب واكراه واجبار بيد الطبقة البرجوازية.

فالدولة القومية، كما هو الحال بالنسبة لاشكال السلطة التي سبقتها هي استجابة لمرحلة تاريخية ليس الا. وبانتهاء هذه المرحلة يرى ماركس ان المؤسسات الحالية للدولة الرأسمالية سوف تزول، ولن يكون هناك حاجة في المرحلة القادمة لمؤسسات الدولة. أي انه كما كان المجتمع البدائي أو مجتمع الشيوعية البدائية مجتمعاً بلا دولة فان المرحلة التي ستلي مرحلة النظام الرأسمالي والتي سماها ماركس بالشيوعية الديمقراطية سوف تأتي بنظام جديد ليس فيه للدولة وجود باستثناء الفترة الانتقالية الضرورية التي اضافها لينين للنظرية الماركسية وتسمى بفترة «دكتاتورية البروليتاريا» التي ترغم فيها طبقة العمال على ابقاء مؤسسات الدولة لتثبيت وجودها. وبعد انقضاء الفترة الانتقالية سوف تنعدم الحاجة الى مؤسسات الدولة ويتم زوالها[5].

٦ ـ النظرة الانتروبولوجية : Anthropological View

ان هناك نظريات انتروبولوجية متعددة تبحث في اصل الدولة وتأخذ في الاعتبار عناصر النسب، والدين، والقوة، والاتفاق، التي تم بحثها في نظريات نشوء الدولة. ومن المتعذر استعراض مختلف النظريات الانتروبولوجية الخاصة بنشوء الدولة، وسوف نكتفي بالقاء نظرة عامة على مضمونها.

ان المعلومات الانتروبولوجية تفيد ان اصل الدولة على ما يبدو يعود الى الاسرة التي تطورت فيما بعد الى العشيرة ومنها الى القبيلة وان عادة واسلوب

5- **The Encyclopedia Britannica** 15th Edition: (Chicago, William Benton, Publisher) Volume 17, p. 612-613.

أنظر ايضاً د. يحيى الجمل، **الانظمة السياسية المعاصرة**، (بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٦٩)، ص ٩٤ - ٩٨.

اطاعة الوالد وقبول سلطته في الاسرة قد انتقلت الى مجلس شيوخ القبيلة. ولكن ظهور السلطة الفعلية لمجلس القبيلة التي اشتملت على قواعد اكثر وضوحاً وتنظيماً يعود الى نشوء الاقتصاد الرعوي وتأسيس الملكية الخاصة. ان هاتين الظاهرتين قد اوجدتا مشاكل جديدة وخلقتا الحاجة لوجود سيطرة اجتماعية قوية وقيادة واضحة. وقد أدى هذا الى تطور سلطة فردية لشيخ القبيلة فوق مجلسها والتي غالباً ما اصبحت سلطة وراثية.

وفي فترات لاحقة وعندما فاق عدد السكان كميات الغذاء المتاحة فان الكثير من القبائل الرحل بدأت تستقر على الاراضي الخصبة التي أمكن زراعتها. ومع ظهور الاقتصاد الزراعي نشأت الدولة الاقليمية واصبح الانتماء الاقليمي يكمل روابط النسب.

ان الحروب والفتوحات والسيطرة على المجتمعات الضعيفة واخضاعها لارادة القوة، قد لعبت ايضاً دوراً مهماً في نشوء الدولة وتأسيس السلطة وتختلف اهمية عنصر القوة في تحديد نشأة الدولة بحسب اعتبارات الزمان والمكان.

فالدولة قد ظهرت للوجود نتيجة عوامل احيائية (بيولوجية) واقتصادية، وثقافية، وعسكرية[6].

6- Raymond Polin, **Modern Government and Constitutionalism** (Chicago: Nelson-Hall, 1979) p. 22-23.
See also George· Balandier, **Political Anthropology** tra. by Sheridan Smith, (New York. pantheon books) p. 123-157.

obeikandl.com